المحاضرة الخامسة: الغريـزة، النـزوة، الرغبـة، الهوام

1- الغريـزة Instinct

لغويا الغريزة تعني الطبيعة، القريحة، السجية ، من خير أو شر.

عموما يعني مصطلح الغريزة ذلك الميل الفطري للكائن الحي للتصرف بنفس الطريقة إزاء نفس الموقف أو الاستجابة الموحدة لمجموعة من المثيرات، بحيث تحدث بنفس الشكل في جميع أعضاء النوع. مثل السلوك الغريزي للحيوانات فتقوم الطيور بشكل طبيعي ببناء أعشاش دون أن تتعلم، وتغذي وتحمي صغارها بالطريقة نفسها بالضبط.

ووصفها ويليام ماكدوجال بأنها: الدوافع الأساسية للسلوك البشري، فهي استعداد فطري نفسي جسمي يدفع الفرد إلى أن يدرك ميله إلى أشياء من نوع معين، ويشعر إزاءها بانفعال خاص، ثم يسلك نحوها سلوكاً معيناً أو يحاول ذلك على الأقل، والغرائز عامة بشترك فيها الناس جميعاً ، في كل سلالة وفي كل حضارة وفي كل عصر، وهي دوافع فطرية لا تكتسب ولا يمكن استئصالها أو القضاء عليها.

وهي ميل للعمل بالفطرة تحت ضغط الحاجة الحيوية لتحقيق التأقلم مع البيئة. فهي نمط ثابت من السلوك الثابت عند الحيوان، أما عند الإنسان فالبرغم من أنها أساس تصرفه لكنها تكون أكثر مرونة واختلافا. وهي في علن النفس شكل من أشكال السلوك النفسي ونوع من السلوك الفطري والوراثي والبيولوجي.

ويعتبرها فرويد اللبنات الأساسية للسلوك الإنساني وتعتبر مفهوما محوريا في نظريته، حيث تفترض أن السلوك تحفزه الرغبة في تقليل التوتر الناجم عن عد تحقيقها. فيعرفها " سلوك موروث، خاص بنوع حيواني معين، لا تتباين إلا قليلا من فر د إلى آخر ضمن نفس النوع. و تجري تبعا لمسار زمني يندر تعرضه للانقلابات، تبدو و كأنها تجيب على غائية معينة.

وعدد ماكدوجال McDougall ثمانية عشر غريزة، بينما يرى كلفن هال أن كثرتها ترتبط بالحاجات البدنية. وفي هذا الشأن يرى فرويد أن البحث البيولوجي هو الذي يحدد مسألة الغرائز و يفصل فيها

ومن أهم الغرائز التي ضعها ماك دوجل نجد:

غريزة الخلاص: استعداد يستثار في الإنسان إذا ما أدرك أنه في خطر.

غريزة القتال: وهو إذا أدرك الإنسان أنه أمام عائق يقف ضد رغباته، فيشعر بالغضب ويدفعه للتخلص منه.

غريزة التعاطف: وهي تستثار عند إدراك الضعف في الآخرين وحاجتهم إلى المساعدة.

غريزة الاستطلاع: وذلك إذا وجد نفسه أمام موقف يهمه معلوم أو مجهول الأجزاء فينزع لاستطلاعه.

كما هناك غريزة الطعام والشراب، الجنس، النفور، السيطرة، الاستسلام، الخنوع، التملك، الاجتماعية.

2- النـزوة Pulsion

أدخل مصطلح نزوة (Pulsion) إلى علم النفس من طرف فرويد وهو نقل وترجمة للكلمة الألمانية (Triéb) تفرقة عن مصطلح غريزة (Instinct) ونزعة، فالأول يحمل في طياته معنى الاندفاعية مشيرا بذلك إلى الطابع القاهر للنزوة أكثر من الإشارة إلى ثبات الهدف والموضوع. واستعمل pulsion بالفرنسية للتمييز بين الطاقة النفسية المرتبطة بالجانب الحيوي للفرد، و بين الطاقة النفسية الخاصة بمجموع الرغبات التي تستند لمبدأ اللذة و مبدأ الواقع و مبدأ الثبات نتيجة التخلص من التوترات الناجمة عن الرغبات؛ حيث إشباعها يعمل على تفريغ الطاقة النفسية وبالتالي استعادة التوازن الهيموستازي للفرد و يخضع الفرد إلى نوعين من الاستثارات؛ استثارة خارجية ترتبط بالعوامل و الظروف، و استثارة داخلية المنشأ، تدعى بالنزوات.

والنزوة في إطار التحليل النفسي حسب لابلانش وبونتاليس تعرف بأنها عملية دينامية تتمثل في اندفاع شحنة طاقوية وعامل حركي (تنزع بالمتعضي نحو هدف معين و تنبع حسب فرويد من إثارة جسدية (حالة التوتر) و يتمثل هدفها في القضاء على حالة التوتر التي تسود على مستوى المصدر النزوي، و يمكن للنزوة أن تدرك هدفها هذا في الموضوع ذاته أو بفضله. يرتبط مصير النزوة بمفهوم الاستثمار، فتتميز بأنها حركية و ليست ثابتة، بل هي متغيرة متجددة و متكررة، تزيد و تنقص. فهي بالتالي تستثمر في مواضيع معينة ما، تسحب استثمارها منه ثم تعاد و تستثمر في مواضيع أخرى.

مكونات النزوة:

تعريف فرويد للنزوة يظهر ثلاث مكونات لها: المصدر، الهدف و الموضوع. وقام Jeammet بإضافة مكون رابع حيث لا يمكن للنزوة أن تظهر إلى به، ألا وهو الإندفاعة و ما يرتبط بها من طاقة.

*- **الاندفاعة La poussée**: الطاقة المستخدمة في انجاز عمل الشخصية مستمدة كلها من الغرائز. فتطهر الاندفاعية كعامل كمي (اقتصادي) ، فكون النزوة هي التمثيلة النفسية للإثارات النابعة من داخل الجسم لتصل إلى النفس هو ما يدفع بالنفس لإقامة الترابط، فمفهوم النزوة يقع بين حدي النفسي و الجسدي.

*- **المصدر أو المنبع La source**: تشكل أصل النزوة إن كان على المستوى الموقعي الطوبوغرافي أو على مستوى السببي. فعلى المستوى الطوبوغرافي تشير إلى مكان ميلاد النزوة: أين؟ في أي منطقة من من الجسم، و من أي ساحة نفسية تأخذ منبعها. فالنزوة تأخذ قطبا نفسيا و أخر جسديا كما تمت الإشارة إليه، فهي بالتالي تأخذ منبعها من الاثنين. كالنزوة الفمية التي تنبع من منطقة الفم باستثارة نفسية داخلية. غير أن بعض النزوات لا يمكن إدراكها جسديا، فهي تأخذ طابعا نفسيا أساسيا. فقد تكو ن الرغبة عقلية، عاطفية... و هنا يتدخل البعد السببي في منبع النزوة و ترتبط بالعوامل المفجرة أو المحرضة لها. و عليه فإن منبع النزوة كما ترى مورال Morel، يمكنه أن يكون جسديا أو نفسيا أو الاثنين معا، داخلي خارجي أو الاثنين معا. فالجوع مثال كادراك عضوي يتظاهر جسديا من خلال استثارة لمنطقة غلمية، يفجرها عوامل داخلية أو خارجية.

***– الهدف Le but**: هدفها إشباع الحاجة أو الرغبة و زوال التوتر، و كما تمت الإشارة إليه فان النزوة تصعد من الطاقة النفسية، و هدفها هو تخفيض الطاقة و الوصول إلى الحالة ، السابقة وحالة الثبات و اختفاء النزوة، بمعنى "موت النزوة". و قد يكون لنفس النزوة هدفا أساسيا و أهداف ثانوية.

***– الموضوع L'objet**: الموضوع الذي يحقق هدف النزوة فهو الوسيلة التي تستثمر فيها النزوة لتحقيق هدفها و تصل إلى نهايتها. و يعتبر أكثر مرونة، أكثر تنوعا و تغيرا. فيمكن أن يكون شخصا، أو عنصرا خارجيا و/ أو داخليا، مجردا أو ملموسا، هواميا أو واقعيا. و يصعب في مجال الرغبة التمييز بين الهدف و الموضوع. فالعطش كحاجة حيوية تدفعنا لشرب أي سائل لأجل إشباع الحاجة العضوية (الهدف) و هنا الموضوع لا يهم. أما في حالة اقتران العطش كرغبة، فأن اختيار شراب محدد (موضوع) يقترن بإشباع الرغبة (هدف).

أنواع النزوات:

أ. النزوات الجنسية :اندفاعات داخلية يراها التحليل النفسي فاعلة في مجال أوسع بكثير من مجال النشاطات الجنسية بالمعنى الشائع للكلمة. وتحقق فيها بأجلى الصور وأكملها بعض خصائص النزوة التي تميزها عن الغريزة. وبين التحليل النفسي أن النزوة الجنسية عند الإنسان وثيقة الارتباط بجملة من التصورات أو الهوامات، وهي تنتظم تحت صدارة النشاط التناسلي.

يفترض فرويد من وجهة نظر اقتصادية وجود طاقة وحيدة في تقلبات النزوة الجنسية هي **الليبيدو** .وأما من وجهة نظر دينامية فيرى فرويد في النزوة الجنسية قطبا ماثلا بالضرورة في الصراع النفسي: إذ أنها الموضوع المفضل للكبت في اللاوعي.

ب. النزوة الجزئية :هذا المصطلح يدل على العناصر الأخيرة التي يتوصل إليها التحليل نفسي في تحليله للجنسية، حيث يختص كل من هذه العناصر بمصدر معين (من مثل النزوة الفمية، الشرجية ،).... وبهدف معين (مثل نزوة النظر، السطوة.) ولا يعني مصطلح "الجزئي" فقط أن النزوات الجزئية هي أنواع تنتمي إلى فئة النزوات الجنسية في عموميتها، بل لا بد من تناوله خصوصا بمعنى تكويني وبنائي: إذ تنشط النزوات الجزئية، بادئ ذي بدء، مستقلة عن بعضها البعض، وتنزع من ثم إلى الاتحاد في مختلف التنظيمات الليبيدية.

ج. نزوات حفظ الذات :يدل فرويد بهذا المصطلح على مجمل الحاجيات المرتبطة بالوظائف الجسدية الضرورية لحفظ حياة الفرد، ويشكل الجوع نموذجها الأول. تتعارض نزوات حفظ الذات، تبعا لفرويد وضمن إطار نظريته الأولى عن النزوات، مع النزوات الجنسية .

د. نزوات الأنا :حسب فرويد وفي إطار النزوات الأولية يعتبر نزوات الأنا من النزوات النوعية التي تضع طاقتها في خدمة الأنا والحفاظ عليه من خلال الصراع الدفاعي وهي تدرج ضمن نزوات حفظ الذات وتتعارض مع النزوات الجنسية.

هـ. نزوات الحياة :إنها فئة كبرى من النزوات التي يضعها فرويد في نظريته الأخيرة. في مقابل نزوات الموت، وهي تنزع إلى تكوين وحدات متزايدة في كبرها على الدوام وإلى الحفاظ عليها. ولا تقتصر نزوات الحياة التي يدل عليها بمصطلح الإيروس على تغطية النزوات الجنسية الفعلية وحدها بل هي تشمل أيضا نزوات حفظ الذات.

و. **نزوات الموت** :تدل في إطار آخر نظرية فرويدية حول النزوات، على فئة أساسية من النزوات التي تتعارض مع نزوات الحياة، والتي تنزع إلى الاختزال الكامل للتوتر، أي إلى رد الكائن الحي إلى الحالة اللاعضوية. تتوجه نزوات الموت بادئ الأمر نحو الداخل وتنزع نحو التدمير الذاتيُ، ثم تتوجه فيما بعد نحو الخارج، وتتجلى عندها على شكل نزوة العدوان أو نزوة التدمير.

ز. **نزوات التدمير** :يستخدم فرويد للدلالة على نزوات الموت منظورا هو أكثر قربا من التجربة البيولوجية والنفسانية، يبلغ مدى استعماله أحيانا، نفس مدى مصطلح نزوة الموت، ولكنه يصفه على الأغلب نزوة الموت باعتبارها موجهة نحو العالم الخارجي، ويستخدم فرويد أيضا بهذا المعنى الأكثر تخصصا مصطلح: نزوة العدوان.

ح. **نزوة السطوة** :استعمل فرويد هذا المصطلح في بعض المناسبات، بدون إمكانية تقنين استعماله بدقة، ويقصد به نزوة غير جنسية، لا تتحد مع الجنسية إلا ثانويا، وتتخذ من السيطرة على الموضوع بالقوة هدفا لها.

ط. **نزوة العدوان** :تدل بالنسبة إلى فرويد على نزوات الموت باعتبارها متوجهة نحو الخارج. يتلخص هدف نزوة العدوان في تدمير الموضوع.

3- الرغبـة:

هي مفهوم مركزي في التحليل النفسي بشكل عام، تشير هذه الكلمة إلى الانجذاب الجنسي أو النفسي لموضوع ما عادة ما يأخذ أشكال الشهية، والتمني، والرغبة في نظرية فرويد هي تحقيق ما يود تحقيقه اللاشعور. يتجلى هذا بشكل خاص في الأحلام، وذلك بفضل الرفع الجزئي للسيطرة والرقابة الطوعية (الثقافية والاجتماعية والدينية والأسرية، وما إلى ذلك). إنه متميز عن الحاجة، حيث يتم إشباع الأخيرة بشكل مباشر، كما هو الحال مع الطعام، بينما ترتبط الرغبة في التمثل، بالذكريات التي ارتبطت بتجربة الرضا. عزز **لاكان** هذا التمييز من خلال تكميله بمفهوم آخر، هو مفهوم الطلب المتميز عن الحاجة. وتنشأ الرغبة من الفجوة بين الحاجة (القطب المادي) والطلب على الحب (القطب النفسي)، بالهيام وبالتالي بالخيال. إنها أحد قطبي الصراع الدفاعي في المفهوم الدينامي الفرويدي: حيث تنزع الرغبة اللاواعية إلى أن تحقق من خلال استرجاع الإشارات المرتبطة بتجارب الإشباع الأولي. تبعا لقوانين العملية الأولية. ولقد بين التحليل النفسي كيف تتواجد الرغبة في الأعراض على شكل تسوية على غرار نموذج الحلم.

4- الهـوام

الهوام "fantasme "عبارة عن سيناريو خيالي يكون الشخص فيه حاضرا وهو يصور بطريقة تتفاوت في درجة تحويرها بفعل العمليات الدفاعية لتحقيق رغبة ما وتكون هذه الرغبة الواعية في نهاية المطاف. أخذ فرويد هذا المصطلح من الكلمة الألمانية "phantasie "ومعناها باللغة الفرنسية ضيق على سابقتها الألمانية، فهو يقصد في دلالته على تكوين خيالي خاص من نوع ما و لا يدل على عالم التخيلات والنشاط التخيلي بوجه عام.

وترى مورال Morel بأنه إنتاج خيالي و ليس فكرة تأملية عقلانية، أحلام اليقظة يكون الفرد فيه حاضرا و نشطا، يراقب إنتاجه الهوامي الذي يرسم بشكل مشوه قليلا بسبب الأنساق الدفاعية التي تهدف لتحقيق رغبات لا واعية و إحداث الإشباعات "كحل" ممكن للاحباطات، ففي الهوام يكون الفرد هو المؤلف، المخرج، الممثل،

و المشاهد في الوقت ذاته، لكن دون أن يتحكم في المحتويات الإنتاجية. كما أن الفرد لا يقرر أو يحدد هواماته، كونها تتجلى بطريقة عفوية لا يتم استدعائها،

فالهوام ينشط في حالة الاسترخاء و نقص الرقابة و التفطن، لتسمح بتفتح عالم لا واقعي وهوامي أمام الفرد.

فالهوام كما يقول (2003) Bergeret لديه قيمة دفاعية إلى الحد الذي يسمح بالتحرر من إقحام واقع تطفلي. و كان فرويد قد أشار إلى أن الهوامات كتكوينات تسوية، بنيتها متشابهة مع بنية الحلم، إلا أن الهوامات أو أحلام اليقظة تستخدم من قبل الإرصان الثانوي الذي يشكل إحدى طرفيه، و يرتبط بالرغبة اللاواعية الأكثر عمقا للأحلام من الطرف الآخر. و يشير فرويد إلى أن الهوام واعي واللاواعي، و يعتبر كنقطة مفضلة لعملية "العبور" بين مختلف الأنظمة النفسية: أي الكبت أو عودة المكبوت... فتقترب جدا من الوعي دون أن تتعرض ألي إزعاج طالما لم تحظ بتوظيف مفرط. و يضيف بان صلة وثيقة تربط بين الهوام و الرغبة و تتمثل في هوام الرغبة. فالرغبة تجد مصدرها و نموذجها في تجربة الإشباع من خلال ما اختبره بداية في هلوسة الرغبة. إلا أن لبلانش و بونتاليس يريان بان العلاقة بين الهوام و الرغبة أكثر تعقيدا، و لا يمكن اختزاله إلى مجرد غاية مقصودة من قبل الشخص الراغب.